الفصل السابع

زليخة الشهابي
رائدة الحركة النسائية الفلسطينية

عبلة الدجاني

تفاعلت المرأة الفلسطينية مع النضال الوطني للشعب الفلسطيني منذ تكشّفت المؤامرة الإمبريالية ـ الصهيونية على فلسطين، حيث شاركت المرأة في كافة أشكال النضال، وتعرضت لمختلف أساليب القمع الصهيوني، من اعتقال، وتعذيب، وسقط العديد من النساء ما بين جريحات، وشهيدات.

فبعد صدور «وعد بلفور» الذي تعهدت بريطانيا بمقتضاه بإقامة «وطن قومي» لليهود على أرض فلسطين، هبَّ الشعب الفلسطيني ـ رجاله ونساؤه ـ لمقاومة هذا الوعد، والتصدي للمخططات البريطانية والصهيونية على وطنه فلسطين، حيث سارعت المرأة لتأخذ دورها في النضال الوطني، وتشارك الرجل في الدفاع عن الوطن، متجاوزة بذلك الإرث الاجتماعي، والثقافي السائد، حيث لم يعد عائقًا لحركة المرأة، فالضرورات الوطنية أباحت المحظورات الاجتماعية.

لتنظيم عمل المرأة، قامت السيدتان، زليخة الشهابي، وإميليا السكاكيني، بتشكيل أول اتحاد نسائي عربي فلسطيني عام (١٩٢١)، هدفه مناهضة الانتداب البريطاني، والوقوف في وجه الاستيطان الصهيوني، إضافةً إلى الإسهام في بناء المجتمع الفلسطيني. وضم الاتحاد عددًا من النساء المقدسيات، وكان أول عمل سياسي نسائي قام به هذا الثنائي المسيحي ـ الإسلامي توجيه رسائل إلى المندوب السامي البريطاني، احتجاجًا على الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والاستيطان الصهيوني على أرضها [١].

وترأست زليخة الشهابي هذا الاتحاد، لتكون رائدة الحركة النسائية الفلسطينية، ولتلعب دورًا بارزًا في النضال الوطني.

المناضلة زليخة إسحاق الشهابي من مواليد مدينة القدس. عام (١٩٠٠)، سليلة عائلة الشهابي، العريقة، والمعروفة بمواقفها، وثقافتها الوطنية، والقومية، وقد شغل والدها، إسحاق الشهابي، رئاسة بلدية القدس في عام (١٩٢٧)، وكانت زليخة أصغر أبنائه الخمسة، وأخوها جميل (أكبر الأبناء) مديرًا لمدرسة الروضة الثانوية في القدس، وأخوها صبحي مفتشًا زراعيًا، أما أختاها فكانتا متزوجتين، وغير معروف نشاطهما.

تعلمت زليخة في مدرسة «راهبات صهيون» في مدينة القدس، وكانت تتمتع بشخصية قوية، كما كانت محبوبة، بسبب أسلوب تعاملها، وتأثيرها على من حولها[٢].

كان لنشأة، ومكان دراسة زليخة تأثير كبير على تكوين شخصيتها، وتشكيل وعيها، واهتمامها السياسي في مرحلة الطفولة. بدأت إسهامها الفاعل منذ شبابها المبكر، وذلك بعد صدور «وعد بلفور» .

في عام ١٩٢٨ قامت زليخة بتأسيس «جمعية الاتحاد النسائي الفلسطيني» في مدينة القدس، بمشاركة عدد من سيدات الأسر العريقة، وزوجات الوجهاء المقدسيين، وكان الهدف من تشكيل هذه الجمعية هو ترسيخ أقدام المرأة في العمل الوطني، ومشاركة الرجل في نضاله، وبتشجيع من زليخة، تأسست جمعيات نسائية في يافا، وحيفا، ونابلس، وبعض المدن، والقرى، حيث قامت هذه الجمعيات بأدوار هامة، سواء بالاشتراك بالنشاطات الجماهيرية، أو مساعدة المجاهدين، وأسرهم [٣] .

وفي هبَّة البراق، التي تفجرت صيف عام ١٩٢٩، نهض العمل النسوي الفلسطيني المبادر، منددًا بالممارسات التعسفية البريطانية ضد المناضلين الفلسطينيين، واستمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

كان الصهاينة في آب/ أغسطس ١٩٢٩ قد قاموا بمظاهرة ضخمة في تل أبيب، إحياءً لذكرى تدمير الهيكل، ثم قاموا، في اليوم التالي، بمظاهرة أخرى، متوجهين إلى «حائط البراق» (ويسميه الصهاينة «حائط المبكى»)، وهناك رفعوا العَلَم الصهيوني، وأنشدوا نشيدهم القومي (هاتكفا)، مما استفز الشعور الوطني، وأشعل شرارة هبَّة البراق، وقد شاركت النساء في هذه الهبَّة، إما بحمل السلاح، والقتال، أو بالإسعاف، ونقل الجرحى، وقد سقطت تسع شهيدات في الهبَّة المذكورة برصاص الجيش البريطاني [٤] .

بدأ صوت المرأة يعلو، وتنادت السيدات إلى عقد المؤتمر النسوي الأول في القدس عام ١٩٢٩، وفيه شاركت (٣٠٠) سيدة من مدن، وقرى فلسطين، وقد انتخبت رئيسة للمؤتمر، عقيلة السيد/ موسى كاظم الحسيني، رئيس للجنة التنفيذية العربية، التي قادت الحركة الوطنية الفلسطينية على مدى عشرينيات القرن العشرين، وكان الوضع المأساوي في فلسطين هو المادة الرئيسية في مناقشات المؤتمر المذكور.

اتخذ المؤتمر عدة قرارات، وهي:

١ـ المطالبة بإلغاء «وعد بلفور» باعتباره السبب الوحيد لكل الحركات الثورية الفلسطينية.

٢ ـ توقيف الهجرة الصهيونية.

٣ ـ إلغاء قانون العقوبة الجماعية.

٤ ـ الاحتجاج على المعاملة السيئة للمعتقلين الفلسطينيين.

قبل انتهاء جلسات المؤتمر التاريخي انتخبت لجنة تنفيذية من (١٤) سيدة لتنفيذ قراراته، وإدارة نشاط الحركة النسائية في البلاد، وتشكلت اللجنة من عقيلة د. حسين فخري الخالدي رئيسة، وعقيلات السادة/ جمال الحسيني، موسى العلمي، عوني عبد الهادي، شكري ديب، بولس شهابي، صبحي الخضرة، والآنسات / زليخة الشهابي، زاهية النشاشيبي، فاطمة الحسيني، خديجة الحسيني، وماتيل مغنّم.

تكونت اللجنة التنفيذية من عقيلات قادة الحركة الوطنية الفلسطينية، ولكن زليخة الشهابي تمكّنت من اختراق هذا الملمح، لتشارك في اللجنة التنفيذية، لنشاطها العريق في المجال النسائي، الذي لا يمكن التغاضي عنه.

من أهم أهداف المؤتمر العمل على تطوير الشؤون الاجتماعية والاقتصادية للمرأة، وبذل الجهد لتعليمها[٥]، وكان هذا المؤتمر هو الخطوة الأولى لبدايات عمل المرأة ضمن أطر تنظيمية واضحة، فقد تأسس أول اتحاد نسائي في فلسطين، وأعقبه تأسيس فروع له في عدد من مدن، وقرى فلسطين.

بعد انتهاء المؤتمر سارت النساء في مظاهرة بالسيارات جابت شوارع مدينة القدس، متوجهة إلى مقر المندوب السامي البريطاني، حيث قدمن إليه عرائض طالبن فيها بإلغاء «وعد بلفور»، ووقف الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، ومعاملة الاسرى الفلسطينيين معاملة المسجونين اليهود، وقد ضاعفت المرأة الفلسطينية في المدن، والقرى، نضالها ضد المؤامرة البريطانية ـ الصهيونية على فلسطين، وشملت نضالات الاتحاد، بفروعه، الأشكال التالية:

١ ـ النضال السلبي، من خلال توقيع عرائض، وإرسال برقيات احتجاج إلى المنظمات الدولية الإنسانية، لمواجهة مخططات العدو.

٢ ـ أشكال العمل الاجتماعي، وتمثل بفتح المستشفيات، وجمعيات لرعاية أسر الشهداء، والفدائيين.

٣ ـ أشكال النضال الجماهيري، بالقيام بالاعتصامات، وتسيير المظاهرات، وتنظيم الإضرابات.

٤ ـ أشكال النضال العسكري الذي تميّزت به المرأة في القرى، حيث كانت تقوم بتوصيل المؤن والذخائر للفدائيين في الجبال، بل إن دور المرأة وصل إلى حد المشاركة في المعارك ضد قوات الانتداب البريطاني، وضد قوات «الهاجاناة» الصهيونية[٦].

في عام (١٩٣٢) انطلق الريف الفلسطيني بثورته ضد المخططات البريطانية الهادفة إلى الاستيلاء على الأرض الفلسطينية، وبناء مستوطنات للمهاجرين اليهود الجدد، وأصبح الفلاحون والملاّك في مواجهة مع السياسات البريطانية، وكان للمرأة الفلسطينية دور متميز، حيث شاركت في المعارك ضد المحتل البريطاني، وسقطت الشهيدة فاطمة غزال، كَعَلم من أعلام ثورة الريف.

تصاعد الدور النضالي للمرأة الفلسطينية أثناء الإضراب الكبير الذي دام ستة أشهر (٢٠/ ٤ - ١٣/ ١٠/ ١٩٣٦) والثورة الكبرى التي امتدت ما بين عامي (١٩٣٦ - ١٩٣٩)، وأسهمت المرأة فيها بشكل أكثر وضوحًا وفاعلية، فقامت بجمع التبرعات، وتوزيعها على المحتاجين من أبناء الثوار، والأسرى، والشهداء، وحملت مسؤولية نقل المؤن،

والأسلحة، عبر نقاط التفتيش البريطانية، التي كانت تحد من تحركات المجاهدين، وقامت المرأة بدور استخباراتي فاعل لتبليغ المجاهدين بتحركات القوات البريطانية[٧].

لم يقتصر النضال السياسي للمرأة الفلسطينية على الساحة الفلسطينية فحسب، بل امتد ليشمل الساحة العربية، حيث دعت إلى عقد مؤتمر عربي في القاهرة في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٨ لنصرة الشعب الفلسطيني، وحضرته وفود من: سوريا، العراق، لبنان، مصر، وفلسطين. وحمل المؤتمر عنوان «مؤتمر نساء الشرق للدفاع عن فلسطين». وفي هذا المؤتمر، الذي عقد في القاهرة، وترأسته السيدة هدى شعراوي، رئيسة الاتحاد النسائي العربي في مصر، قد تميَّز الوفد الفلسطيني في عدد أعضائه وفاعليته، إذ شارك الوفد في الجانب التنظيمي، والإداري، إلى جانب مشاركته في النقاشات السياسية، وتقديم التوصيات.

كانت المرحومة زليخة الشهابي وكيلة للرئيسة، كما قام عدد من السيدات في الوفد بمهام كبيرة في المؤتمر، وألقت كلمة الوفد الفلسطيني السيدة طرب عبد الهادي (قرينة عوني عبد الهادي)، رئيس «حزب الاستقلال العربي الفلسطيني»، وأثبتت المرأة حضورًا سياسيًّا أثناء المؤتمر، وتميَّزت كلمات الوفد الفلسطيني بالوعي المبكر لأهمية النضال الفلسطيني للعروبة، والإسلام، والتأكيد على قيمة العمل النسوي العربي المشترك، وقد وجه الوفد الفلسطيني دعوة لمقاطعة البضائع الإنجليزية، ودعم الثورة الفلسطينية، والإفراج عن المعتقلين الفلسطينيين[٨]. وكان هذا المؤتمر تظاهرة نسائية قومية رائعة.

بعد نكبة فلسطين عام (١٩٤٨)، وتشتت الشعب الفلسطيني، وجدت المرأة الفلسطينية نفسها أمام واقع جديد، يفرض عليها تحمل مسؤولية الأسرة المعيشية، وخاصة بعد فقدان الأسرة لمعيلها، فاقتحمت ميادين العمل، ولكنها، في الوقت نفسه، لم تنس واجبها الوطني والقومي، وأسهمت في ميادين الحياة السياسية، على مستوى الوطن العربي، حيث شاركت الرجل في المظاهرات الوطنية، والقومية. على المستوى الوطني، أكدت تمسكها بهويتها، وحق العودة إلى وطنها فلسطين.

كان الوضع داخل فلسطين مختلفًا، فقد ضمت الحكومة الأردنية إلى شرق الأردن، في مايو/ آيار ١٩٥٠، الجزء الملاصق لها من أرض فلسطين، غير المحتل من قبل إسرائيل، وأطلقت عليه تلك الحكومة اسم «الضفة الغربية»، ومن ثم تركَّز عمل المرأة الفلسطينية من خلال جمعيات الاتحاد النسائي على الأعمال الاجتماعية، والإنسانية.

فالاتحاد النسائي في القدس، برئاسة المرحومة زليخة الشهابي، قام بتأسيس مستوصف لمعالجة المحتاجين، والتطعيم ضد الأمراض، وتعيين ممرضة لاستقبال المرضى، وإحالة الحالات الصعبة إلى طبيب. وفي عام ١٩٥٠ تم إنشاء مركز لرعاية الأطفال، وآخر لرعاية الحوامل، وإرشاد الأمهات بكيفية الاعتناء بأطفالهن[٩].

وحتى لا يبقى الجهد النسائي الفلسطيني مبعثرًا، فقد ولدت في التجمعات الفلسطينية فكرة إيجاد تجمع نسائي فلسطيني واحد، يعمل على توجيه هذا الجهد ضمن هدف واحد، فبادرت السيدة وديعة خرطبيل، رئيسة «الاتحاد النسائي العربي» في لبنان، إلى عقد اجتماع في بيروت عام ١٩٦٣، حضرته ممثلات عن الاتحادات النسائية الفلسطينية في البلاد العربية، من أجل توحيد جهود المرأة الفلسطينية.

بعد تأسيس «منظمة التحرير الفلسطينية»، الصرح الوطني الذي قاد نضالنا الفلسطيني، وفجَّر طاقات شعبنا،

وانعقاد المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول عام ١٩٦٤ في مدينة القدس، والذي شاركت فيه المرأة الفلسطينية بشكل فعال، اتُّفق، وبتشجيع من اللجنة التنفيذية للمنظمة، على إحياء الفكرة السابقة بإيجاد تجمع نسائي فلسطيني واحد، من فعاليات الداخل والخارج، ليكون قاعدة من قواعد «منظمة التحرير الفلسطينية». وقد شجع هذا الاتجاه زليخة الشهابي، رئيسة الاتحاد النسائي العربي في القدس، على القيام بدعوة المنظمات النسائية في المدن الفلسطينية لعقد اجتماع في الثاني من شباط/ فبراير عام ١٩٦٥، لوضع الترتيبات اللازمة من أجل عقد مؤتمر يضم النساء الفلسطينيات في مختلف تجمعاتهن[١٠].

في ذلك الاجتماع، الذي عقد في مكتب الاتحاد النسائي في القدس، تم تشكيل لجنة تحضيرية، وانتخاب زليخة الشهابي لرئاستها، والسيدة سميرة أبو غزالة ـ رئيسة اتحاد المرأة الفلسطينية بالقاهرة ـ أمينة للسر، واتفقت المجتمعات على أن يكون عقد المؤتمر في مدينة القدس في الفترة من ١٥ - ٢١/ ٧/ ١٩٦٥، وأن يكون على رأس أهدافه توحيد التنظيمات النسائية في اتحاد يسمى «الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية»، لحشد جميع طاقات المرأة الفلسطينية، وتعبئة إمكاناتها، وتحديد دورها في معركة التحرير، وذلك تمشيًا مع القرار الذي أعده المجلس الوطني الفلسطيني، والذي نص على إشراك المرأة الفلسطينية في جميع مجالات العمل التنظيمي، والنضالي، على مختلف المستويات، ومساواتها بالرجل في جميع الحقوق والواجبات.

في أولى جلسات المؤتمر، تم انتخاب زليخة الشهابي رئيسة للمؤتمر، تعاونها السيدات وديعة خرطبيل، ويسرى البربري، وزينات عبد المجيد، ونهيل عويضة، وفي تلك الجلسة أقر مشروع اللائحة الداخلية للاتحاد، وسميت أعضاء اللجان، لدراسة التوصيات المختلفة.

تم في المؤتمر انتخاب أعضاء المجلس الإداري من الفعاليات داخل الوطن وخارجه، كما تم انتخاب الهيئة التنفيذية للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية من فعاليات الأردن؛ نظرًا لأن الدستور ينص على أن يكون المقر الدائم للاتحاد في البلد الذي يكون فيه المكتب الرئيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكان في ذلك الوقت في مدينة القدس، وقد جرت عملية الترشيح، والانتخاب، ففازت:

* السيدة/ عصام عبد الهادي	رئيسة.
* السيدة/ فريدة أرشيد	نائبة للرئيسة.
* السيدة/ سميحة قبَّج سلامة خليل	أمينة السر.
* السيدة/ أمينة الحسيني	سكرتيرة للعلاقات الخارجية.
* الآنسة/ نهيل عويضة	سكرتيرة للعلاقات الداخلية.
* السيدة/ ليديا الأعرج	أمينة للصندوق.

اتخذ المؤتمر قرارات هامة، مالية، واجتماعية، وسياسية، وإعلامية، وتنظيمية، وأصدر بيانًا أعلن فيه عن قيام «الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية»، وناشد فيه النساء الفلسطينيات الالتفاف حوله في كل أماكن تواجدهن[١١].

هكذا أوجدت المرأة الفلسطينية إطارًا تنظيميًّا خاصًّا بها، مارست من خلاله نشاطها في مؤسسات «منظمة التحرير الفلسطينية»، وهو «الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية».

لقد سارعت المرأة الفلسطينية إلى الالتفاف حول «منظمة التحرير الفلسطينية»، التي جسَّدت هويتها الفلسطينية، وبدأت المرأة خارج الوطن المحتل تنظيم نفسها، وتشكيل فروع لها في أماكن تجمعها، وفي المؤتمر الرابع للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، الذي عقد في عام ١٩٨٦، كان للاتحاد تسعة فروع في عدد من البلاد العربية وهي: مصر، الكويت، لبنان، العراق، تونس، الجزائر، الإمارات العربية، البحرين، واليمن، وقد أدت حربا الخليج الأولى والثانية إلى إغلاق الكثير من فروع الاتحاد.

بعد الاحتلال الصهيوني لباقي أراضي فلسطين، في حرب ١٩٦٧، اشتعلت الأرض المحتلة بكافة أشكال النضال، رفضًا للاحتلال الصهيوني، وممارساته الوحشية ضد الشعب الفلسطيني، وكان للمرأة دور بارز في شتى مجالات المقاومة، وقد حدث تطور نوعي آخر على عمل المرأة، فقد انضمت إلى منظمات المقاومة الفلسطينية، وشاركتها بكل أنشطة الثورة الفلسطينية، مما عرَّضها لمختلف أساليب القمع الصهيوني، وقد استشهد نتيجة لذلك عدد من النساء، وأصيبت الكثيرات، وتم اعتقال العديدات.

كان من الطبيعي أن تبادر زليخة الشهابي، وتشارك في المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني، والتي عمت الأراضي المحتلة، من مظاهرات، ومسيرات، وعقد ندوات، ومؤتمرات، وإقامة الاعتصامات، وكتابة النشرات، وغيرها .

في عام ١٩٦٨، وبعد مرور سنة على الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية، والقطاع، تشكلت «لجنة التوجيه الوطني» في الضفة، وضمت بين صفوفها زليخة الشهابي، لتنظيم عمليات تمرد وعصيان مدني ضد الاحتلال، وقادت زليخة الشهابي النساء الفلسطينيات في هذه العمليات، التي كان لها أثر كبير على العدو الصهيوني «وعلى إثرها قامت السلطات الصهيونية بإبعاد زليخة الشهابي، والشيخ عبد الحميد السايح، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني لاحقًا، والسيد روحي الخطيب أمين القدس، وكانت زليخة الشهابي أولى السيدات المبعدات من قبل سلطات الاحتلال الصهيوني».

لمكانتها، وكبر سنها، وتدخلات مختلفة لعودتها إلى وطنها، عادت المناضلة زليخة الشهابي إلى بلدها القدس، وإلى جمعيتها التي أسستها منذ شبابها المبكر.

بإصرار، واصلت زليخة الشهابي عطاءها، ونضالها، ولكن بأساليب مختلفة، حيث تداخل الدور الاجتماعي الخيري بالدور السياسي النضالي، فقد لعبت جمعيتها دورًا هامًّا في دعم صمود المرأة الفلسطينية، من خلال تحسين ظروفها المعيشية، بتقديم المساعدات المادية للمحتاجين، كما قامت بتأهيل المرأة مهنيًّا، كتعليم الخياطة، والتطريز، والآلة الكاتبة، إلى جانب القيام بدورات تثقيفية.

لقد استمرت المناضلة زليخة الشهابي في عطائها، وقيادتها لجمعية الاتحاد النسائي، في مدينة القدس، حتى انتقالها إلى رحمة الله تعالى في عام (١٩٩٢). مخلِّفة وراءها كل هذه الذكرى العطرة.

هوامش الفصل السابع:

(١) د. نجاة أبو بكر، «المرأة الفلسطينية تاريخ حافل بالنضال»:

www.awapp.org

(٢) اتصال هاتفي مع د. عاصم الشهابي (عمان) ٣١ / ٥ / ٢٠٠٩.

ـ اتصال هاتفي مع مليحة الشهابي (القاهرة) ١٣ / ٦ / ٢٠٠٩.

(٣) نشرة الحركة النسوية في فلسطين «رابطة المرأة العربية النمساوية» www.aawleague.org

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ألفت محمود فؤاد، الدور الوطني والاجتماعي للمرأة الفلسطينية، **صامد الاقتصادي** (عمان) العدد٨٦، تموز/ يوليو ١٩٨٦، ص ١١٣.

(٦) خديجة الحباشنة أبو علي، الدور السياسي للمرأة الفلسطينية على الصعيد الدولي، **صامد الاقتصادي** (عمان) العدد٨٦، تموز/ يوليو ١٩٨٦، ص ٩٢.

(٧) أبو بكر، **مصدر سبق ذكره**.

(٨) لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى:

ـ **المرأة العربية وقضية فلسطين**، القاهرة، الاتحاد النسائي المصري، ١٩٣٨.

(٩) أحمد مروات، **المرأة الفلسطينية ودورها في الكفاح الوطني**:

www.diwanalarab.com

(١٠) أبو علي، **مصدر سبق ذكره**، ص٩٤.

(١١) من وثائق المؤتمر الأول للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، **صامد الاقتصادي** (عمان)، العدد ٨٦، تموز - آب (١٩٨٦)، ص ١٦٢-١٧٣.

* * *